

# الأدب المصرى القديم

أو

## أدب الفراعنة

تأليف من سليم

(جزءان ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٥ )

عندما نشر الأستاذ ارمان فى عام ١٩٢٤ مقاله عن بردية امنمؤوبى التى احتوت على حكم نقلها العبرانيون الى لغتهم وكانت الأصل الذى نقلوا منه أجزاء من كتاب سفر الأمثال لسليمان الحكيم ، تلقت العالم كله يسأل عن الأدب المصرى القديم ويسأل عما تركه من أثر فى آداب العالم ، وطلب الناس من علماء الآثار المصرية أن يحدثوهم عن هذا الأدب وعن حياة أصحابه . فأخذ العلماء يعيدون نشر ما سبق أن ترجمه غيرهم من ملفات البردى ويترجمون ما لم يسبق نشره وأثبتوا للعالم أنه كان للمصريين القدماء أدب جامع ، لا يقل عن آداب الأمم الأخرى ، أدب لم يوضع لخدمة غرض دينى كما كان الأمر مع أكثر الأمم القديمة ، وإنما كان أدبا مليئا بالجمال الفنى ، يتذوقه الخاصة ويتوق الى معرفته عامة الناس ، وهو قبل كل شئ أدب نشأ على ضفاف النيل استقى صفاءه ومعانيه من طبيعة مصر وطبيعة أهلها وعكس فى مرآته الكثير من صور حياتهم الخاصة .

ولو أردنا سرد تاريخ اعتناء علماء الآثار بالأدب القديم لوجب علينا أن نعود الى أوائل أيام حل رموز اللغة الهيروغليفية فى القرن الماضى ولكن يكفى أن نشير الى مجهود بعض العلماء الأفذاذ أمثال بروكش وماسبرو وجريفت ثم نقف طويلا أمام كتاب الأستاذ ارمان

فى الأءب المصرى القءىم الذى ظهر بالألمانية عام ١٩٢٣ وظهرت ترجمته الانجليزية عام ١٩٢٧ . فقد قسم ارمان أءب المصرىىن الى فصول وعصور ووضع ترجمة صحيحة للنصوص المصرية وأصبح كتابه منذ ذلك العهد هو المرجع الأول لكل مشغل بأءب قءماء المصرىىن . ولم يقف مجهود علماء الآثار عند ذلك بل ظهرت بعد كتاب ارمان عشرات المقالات وعءة كتب جليلة الشأن تحوى ترجمة بعض البرديات مثل بردية « شستر بىتى » ويرىءه امنمؤوبى وكتاب برستء الذى سماه « فجر الضمير » . ولكن أمثال هذه الكتب والمقالات لا تصل إليها الا أىءى الباحثىن ولذا أصبءت الحاجة ماسة الى اصءار كتاب جءىء فى الأءب يحوى جمىع ما استءءد بعد نشر كتاب ارمان ولكن مرء السنوات ولم يصءر هذا الكتاب فى أى لغة من اللغات .

ومن الغربى أن مصر مهبط هذا الأءب ومصدر وحيه ظلت لا تعرف عنه شىئا اللهم الا بعض مقالات هنا أو هناك فيها محاولة لترجمة بعض القصص المصرية من اءءى اللغات الأجنبية وكان أكثر الذىن قاموا بهذا العمل من غير المتخصصىن فى علم الآثار أو الذىن لم تكن لءىهم الثقافة الكاملة فى الموضوع فجاءت أعمالهم بعىءة عما ىرجوه علماء الآثار وعما ىرجوه المشغولون بالأءب .

وأراء الأستاذ سلىم حسن بك أن ىسء هذا النقص فى المكتبة العربىة فطبع كتابه فى الأءب المصرى القءىم ، ولىس الأستاذ سلىم بك غربىا على الآثار المصرىة فهو من أبر أبناءها وأءء أسائءة الجيل الجءىء المشغل بالآثار وىرجع عهءه بءراستها الى خمسة وثلاثىن عاما كما أن اءتمامه بموضوع الأءب ىرجع بلاشك الى وقت بعىء وهو ىقول فى مقدمة كتابه انه بءأ ترجمة كتاب ارمان فى عام ١٩٣١ ، ولهذا رءب جمىع المشغلىن بالآثار وجمىع من ىهمهم الوقوف على آءاب القءماء أو مظاهر حضارتهم بظهور هذا الكتاب .

ففى الجزء الأول مهد لكتاب بهلمة عن التارىخ المصرى لىسهل على

غير الأثريين فهم العصور المختلفة ، كما ألقى نظرة عامة على الأدب وكيفية نشأته والكتابة وتطورها والمغنون والقصصيون وأثرهم . وبدأ بعد ذلك بالقصص فترجم جميع ما نعرفه من القصص القديمة مقدما لكل منها بملخص وذاكرا بعد ذلك المصادر المختلفة لمن يريد التوسع في دراستها كما اعتنى من آن لآخر بالتعليق على بعض النقط في الهامش لشرح ما يصعب على غير المشتغلين بالآثار . ولو أردنا التعليق على القصص المصرى لاحتجنا الى صفحات ويكفى أن نقول أننا نلمس في هذا القصص خيالا خصبا كما يلقى علينا دروسا ثمينة عن علاقة مصر بغيرها من أمم الشرق القديم مثل قصة سنوهيت وهربه من مصر الى فلسطين ، أو قصة الغريق التى يرى فيها أكثر العلماء الأصل الذى نقل عنه اليونان وظهر بعد ذلك فى كتابات العرب تحت اسم قصة السندباد البحرى ، أو قصة الاستيلاء على يافا أو قصة سياحة « ونأمون » الذى سافر من مصر لاجتياز خشب الأرز من جبال لبنان فلم يلازمه التوفيق .

فإذا وصلنا الى باب الحكم والتأملات رأينا معينا لا ينضب من حكم قيمة تدلنا على المثل العليا التى كان يضعها قدماء المصريين أمام أعينهم ، ومن ذا الذى لا يقف معجبا أمام حكم « بتاح — حتب » التى يرجع تاريخها الى عام ٢٦٥٠ ق.م . تقريبا أو تعاليم « كاجنى » أو نصائح « آنى » أو تعاليم « أمنمؤوبى » التى وضعها مؤلفا لتكون مرشدا فى الحياة العامة والسلوك . لقد اشتهر المصريون بالحكمة واقتخر اليونان بأنهم اقتبسوا من أبناء وادى النيل الحكمة والفلسفة . وليس هناك من شك فى أن المصريين القدماء هم أول من وضع المثل العليا للأخلاق ، ونحن اذ نقرأ هذه الحكم نرى فيها صدى حيا لما فى نفوسنا . ولا عجب فان أسس مكارم الأخلاق فى جميع الأزمنة والعصور واحدة وهى فى الوقت ذاته صورة لما فكر فيه حكماء عاشوا فى البيئة المصرية ، وقد تتغير

الشعوب وتزول الأمم ولكن البيئة باقية ولها الأثر الأكبر على حياة الأفراد .

وينتهى الجزء الأول من الكتاب باعطاء نماذج للرسائل التي كان يتداولها المصريون ومساجلة أدبية بين كاتبين يريد كل منهما أن يظهر تفوقه على الآخر فيحاول النيل من معلوماته . فأحدهما يعير صاحبه بأنه لا يستطيع تقدير وزن مسلة أو تمثال ضخيم كما يعيره أيضا بأنه غير قادر على عمل حساب للمئونة اللازمة لحملة عسكرية ، ثم يضع له امتحانا دقيقا في معرفة بلاد سوريا ولبنان وماهى الطرق الموصلة إليها لأنه كانت من مهام وظائف الكاتب أن يصطحب الجيوش الخارجة للحرب وعليه تموين الجنود وتوزيع ما يلزمهم من ملابس وأسلحة ومأكل في أوقاتها .

وخصص المؤلف الجزء الثانى من الكتاب للدراما والشعر وفنونه ، وفيه نرى أن الدراما المصرية ظهرت في عالم الوجود قبل الدراما اليونانية بما يقرب من ثلاثة آلاف سنة وأنها بلا شك وليدة البيئة المصرية وشبت ونمت من تربتها . فكانت للمصريين تمثيلات يقوم بها الكهنة في بعض الأعياد الدينية وأهمها وأشهرها تمثيلية « حورس وست » التي يلبس فيها الكهنة ملابس الآلهة فيتحدثون ويمثلون وتظهر على المسرح فرق المغنيات والراقصات والموسيقيات لتزيد من بهجة الحفلات ، ونعلم من متون هذه الدراما وغيرها أن المنفرجين كانوا يشتركون مع الكورس في غناء بعض الأناشيد . وفي ختام هذا الفصل عقد المؤلف موازنة بين الدراما المصرية والدراما اليونانية وأظهر ما بينهما من شبه أو اختلاف .

وفي باب الأغاني والأناشيد ترجم المؤلف بعض أجزاء من متون الأهرام وحلل معانيها ومراميها وأظهر للقارىء أهميتها كصورة للحياة الدينية والديوية التي عاشها المصريون في أوائل القرن الثلاثين قبل الميلاد . وثنى بعد ذلك بالأناشيد الدينية للآلهة المختلفة في عهد الدولتين

الوسطى والحديثة فاذا وصل الى عهد اخناتون أعطانا صورة لهذه الحركة الدينية التي رمت الى التوحيد فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ثم عقد بين أنشودة اخناتون لالهه أتون والمزمور ١٠٤ مقارنة لاثبات أن واضع المزمور نقل عن تلك الأنشودة .

يعتقد بعض الناس أن المصريين القدماء كانوا يعيشون لأجل آخرتهم فقط ولكن هذه التهمة هى آخر ما يمكن أن نصف به هؤلاء الناس فانهم منذ بدء حضارتهم الى أن دالت أيامهم لم ينسوا نصيبهم من الدنيا بل انهم بالغوا فى بعض الأحيان فى طريقة حصولهم على هذا النصيب كما نرى ذلك واضحا من حياتهم الخاصة التى صوروها على جدران مقابرهم أو ما نقرؤه مسطورا فى كتاباتهم ويكفى أن يقرأ الانسان ما خلفوه من شعر غزلى ليدرك هذه الحقيقة ، فقد خلف المصريون مجموعة غنية من شعر غزلى بين عذراء وحبيبها وهو شعر مملوء بالركة والعذوبة وفيه يتفتح خيال الشاعر على أسمى ما فى الطبيعة من معان . فنرى الحب على صورته العفة الرقيقة وقد صقلتها حياة الحقل فيناجى الشاعر ما فيه من نبات ومن زهر وما يغرد على غصون أشجاره من طيور لأنه يرى فى نضرة الزهر وسعادة الطير ما يذكره بحبيبة قلبه .

ويأتى بعد فصل الشعر الغزلى فصل المدائح التى قيلت فى الملوك لتخليد أعمالهم وحروبهم ثم ينتهى الكتاب بفصل عن الشعر الديوى فيعطينا بعض أغانى العمال ثم أغانى الولا ثم آخرها أغنيتان مسطرتان على جدران أحد قبور طيبة أولاها تدعو الى طرح الهموم والاستمتاع بكل ما فى الحياة من جمال واسترضاء الحبيبة وسماع الموسيقى ووضع العطور وحمل الزهور لأن الحياة قصيرة وسيأتى اليوم الذى نصل فيه الى الآخرة التى يتردد الشاعر القديم فى الايمان بها فيقول عن أرض الموتى انه « لم يعد منها بعد » . ويلوح أن هذه الأغنية الداعية الى الشك فى البعث أفزعت المؤمنين به فوضعوا أغنية أخرى كتبوها فى القبر

نفسه للتقليل من شأن ملذات الحياة واعلاء شأن ما فى عالم الموتى من  
خلود وأمن ودعة .

والآن بعد أن استعرضنا أبواب الكتاب يجدر بنا أن نقف قليلا  
لايضاح بعض النقاط :

أولا — لا شك أن المكتبة العربية — والمصرية بنوع خاص —  
كانت فى أشد الحاجة اليه ، وقد أسدى مؤلفه يدا مشكورة الى الأدباء  
والمؤرخين .

ثانيا — قد نجح المؤلف فى نقل النصوص الى العربية ، وسواء أكانت  
بعض أجزاء مترجمة من النص المصرى رأسا أو عن ترجمة لها نقلا عن ارمان  
أو برستد أو غيرها فان الترجمة فى مجموعها لا بأس بها ويمكن الاعتماد عليها .  
ثالثا — ترجم المؤلف للمرة الأولى فى اللغة العربية بعض البرديات  
المصرية نخص منها بالذكر أوراق « شستر بيتى » وحكم « أمنمووبى »  
وبذل مجهودا كبيرا فى التعليق على النقاط التى يصعب فهمها على غير  
المشتغلين بالآثار . وكنا نود أن يكون هذا التعليق والشرح على نطاق  
أوسع ليزداد الانتفاع من الكتاب .

والكتاب فى مجموعه مجهود مشكور ومرجع جديد للمشتغلين بعلم  
الآثار ولمن يريدون دراسة الأدب المصرى ، فلقد سبقت مصر أمم العالم  
فى اكتشاف الزراعة والكتابة والموسيقى والكثير من الصناعات ، وضربت  
نسهم وافر فى كل ما يختص بتقدم الجنس البشرى ، وتركت لنا أيضا  
تراثا أدبيا عظيما كان دائما موضع عناية علماء الغرب وأدبائه وموضع  
اعجابهم . ونحن اذ نجد اليوم بين أيدينا مؤلف الأستاذ سليم بك حسن  
فى هذه الصورة من الاتقان لا يسعنا الا تهنئة أستاذنا الفاضل على  
هذا المجهود .

أحمد فخرى

ROSTOVZEFF, M., The Social and Economic History of the Hellenistic World.

3 vols. Oxford : Clarendon Press, 1941. p. XXIV+1779.

112 plates ; 11 figures in text. 105.

الأستاذ روستوفتف عالم روسى الأصل ، ضاقت به بلاده الفسيحة ، أو على الأصح ضاق بها فنزح الى الولايات المتحدة الأمريكية ، التي أكرمت وفادته مثل ما أكرمت وفادة الكثيرين غيره من العلماء الأوربيين الذين شردهم ما شهدته أوربا من الحركات السياسية العنيفة . ويبدو أنه كان لما صادفه من الحرية في المهجر رد فعل طبيعى في نفسه ، فامتازت مؤلفاته هناك بأفكارها الطلية وجرأتها المثيرة . ولعله كان طبيعيا أيضا أنه عند ما طال به المقام في بلاد الحرية لم يعد عبر الحرية يثير فيه مثل تلك النشوة الأولى ، ولذلك فاننا نفتقد في كتابه الأخير طلاوة كتبه السابقة وجرأتها ، غير أن هذا الكتاب يمتاز عن تلك الكتب بأن أفكاره أكثر اتزاناً واحكامه أصدق معياراً . ومن ثم لا نشك في أن هذا الكتاب سيبقى على الدهر محتفظاً بقيمته العلمية النادرة أكثر من أى كتاب آخر ألفه روستوفتف .

ولما كان هذا العالم الفذ قد وقف حياته العلمية النشيطة على الدراسات القديمة ، وألم بكافة أنواع مصادرها وعنى عناية خاصة بالناحيتين الاجتماعية والاقتصادية في العصور القديمة ، فقد توفرت له كل أسباب النجاح في الاضطلاع بدراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية في العصر الهيلينستى مثل هذه الدراسة المطولة المثمرة . فلا عجب اذن أنه قد أخرج لنا كتاباً كبيراً لا في حجمه فحسب بل كذلك في دقة أفكاره وغازة علمه والسهولة التي عولجت بها موضوعات واسعة ومادة هائلة .

واذا كان المؤلف يعتذر في تصديره بأنه لم يعتمد في كتابه على ما نشر

بعد عام ١٩٣٨ ، فانه يجب ألا تقبل هذا الاعتذار حرفيا ، اذ يتضح جليا من الاطلاع على الكتاب أن المؤلف قد اعتمد على الكثير مما نشر حتى عام ١٩٤٠ . ويتألف هذا الكتاب من ثلاثة أجزاء ، خصص اثنان منها للمتن ، والثالث لحواشي نادرة في قيمتها ، وفهارس للمصادر والمؤلفين والنقوش والأوراق البردية ، وبعض الاضافات والتصحيحات ، وقائمة بالمختصرات . ويضم هذا الجزء أيضا أربعة موضوعات قصيرة بقلم أربعة علماء آخرين . ويتضمن الكتاب مجموعة قيمة من اللوحات ، بعضها لم يسبق نشره وكلها تعين القارئ على تكوين صورة صحيحة عما يقرأه . وموضوع الكتاب كما مر بنا هو تاريخ الحياة الاجتماعية والاقتصادية في العصر الهيلينستي ، أى منذ وفاة الاسكندر الأكبر في عام ٣٢٣ حتى موقعة اكتيوم في عام ٣١ ق.م . ولما كان أثر الحضارة الاغريقية قد ذاع حتى شمل في ذلك العصر الأقطار التي تمتد من أسبانيا غربا حتى الصين شرقا ، وكان تناول كل هذه الأقطار بالدراسة المفصلة يتطلب دهرا طويلا ولا يتمخض عن كتاب ضخم بل دائرة معارف مطولة ، فان روستوفتزن تفادى ذلك بقصر دراسته على أكثر هذه الأقاليم تأثرا بالحضارة الاغريقية ، ومن ثم ترك جانبا إيطاليا وصقلية وقرطجة في الغرب وكل الأقاليم الواقعة الى ماوراء الدجلة والفرات في الشرق .

ويتناول الفصل الأول التاريخ السياسى للعصر الهيلينستي في ايجاز بليغ يبين بوضوح وجلاء الاتجاهات الرئيسية في سياسة الدول المختلفة ، والعوامل الحاسمة التي افضت الى أهم الاحداث السياسية ، والنتائج التي تمخضت عنها سياسة روما ازاء دول الشرق الهيلينستي . ومع تقديرنا لمواهب روستوفتزن وكفايته العلمية الممتازة ، الا أننا نلاحظ أنه لم ينصف في تقديره كفاية انتيجونوس جوناتاس السياسية ولا أخلاق بطلميوس السادس ، وأنه لم يخلف كاسانديروس ابنان فقط بل ثلاثة كانوا فيليب الرابع واثيباتروس واسكندرس الخامس .



ويعطينا الفصل الثانى وصفا موجزا للحياة الاجتماعية والاقتصادية فى بلاد الاغريق والفرس قبل عصر الاسكندر الأكبر ، ويبين المؤلف فى عرض ممتاز العوامل التى افضت الى اضطراب الحياة الاقتصادية فى بلاد الاغريق ، وما كان لذلك من الأثر فى حياتها الاجتماعية ، غير أن بعض الأدلة التى استخدمها المؤلف لتصوير ذلك أحق بتصوير الحالة فى بداية العصر الهيلينستى منها بتصوير الحالة قبل عصر الاسكندر . ويقتصر المؤلف هنا على اعتبار تلك الأزمة الاقتصادية سبب القحط الذى بدأ منذ عام ٣٣١ ق.م ، لكنه يضيف الى ذلك فى الفصل الثامن سبين آخرين وهما عجز المحاصيل وأثار الحرب .

ويلالج المؤلف فى الفصول التالية ( من الثالث حتى السابع ) تاريخ الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى العصر الهيلينستى بطريقة جديدة . فقد درج المؤرخون حديثا فى دراسة العصر الهيلينستى على تقسيمه عادة فترتين ، لكن روستوفتزف قسم أولى هاتين الفترتين قسمين والثانية ثلاثة أقسام . ونحن نرحب بتقسيم الفترة الأولى قسمين ، فانه منذ عام ٢٢٣ حتى عام ٢٨٠ كان على الدوام أحد كبار خلفاء الاسكندر يعتبر نفسه خليفة للفاتح المقدونى العظيم ، ويحاول لم شعث امبراطوريته مما كان يدفع القواد الآخرين الى مناهضته بسبب حرص كل منهم على المحافظة على استقلال دولته . وبموت سليوكوس ، آخر أفراد الجيل الأول من خلفاء الاسكندر ، فى عام ٢٨٠ وظهر الجيل الثانى من أولئك الخلفاء استقرت فكرة قيام دول هيلينستية مختلفة على انقاض الامبراطورية المقدونية ، ووجد نوع من توازن القوى فى العالم الهيلينستى . ونحن اذ نوافق على تقسيم الفترة الثانية ثلاثة أقسام ، لا نوافق على طريقة روستوفتزف فى هذا التقسيم الذى يتلخص فى : أولا من عام ٢٢١ — ١٤٦ ، وثانيا من عام ١٤٦ حتى صدر القرن الأول قبل الميلاد ؛ وثالثا منذ ذلك الوقت حتى موقعة اكتيوم . حقا انه بموت سليوكوس الثانى فى

عام ٢٢٣ ، وأنيتجونوس دوسون وبظلميوس الثالث في عام ٢٢١ تبدأ فترة جديدة تمتاز ببداية انحلال الممالك الهيلينية واهتمام روما بالشرق الهلينيستي اهتماما متزايدا باطراد ، لكننا نرى أنه اذا كان لا بد من التقسيم فان هذه الفترة يجب ألا تمتد الى عام ١٤٦ بل يجب أن تنتهى عند عام ١٩٧ ، الذى انتصرت فيه روما على مقدونيا في موقعة كينوسكفيلاي ، أو على الأكثر عند عام ١٨٩ ، الذى انتصرت فيه روما على سوريا في موقعة ماجنيسيا ، وذلك لأنه منذ انتصار روما في الموقعة الأولى لم يحدث فقط أن فقدت مقدونيا استقلالها في الواقع بل أصبحت روما صاحبة الكلمة العليا في السياسة الاغريقية . وعقب موقعة ماجنيسيا عقدت روما صلح اباميا في العام التالى ، ذلك الصلح الذى مهد السبيل أمام روما لاختضاع الشرق ووطد دعائم النفوذ الرومانى في كل أنحاء العالم الاغريقى حتى انه لم تعد منذ ذلك الوقت توجد في ذلك العالم دولة واحدة مستقلة عن روما استقلالا تاما . ويعترف روستوفتزف نفسه بأنه منذ أصبحت روما على هذا النحو عاملا حاسما في سياسة العالم الهلينيستي تغير تماما مظهر هذا العالم فلم يعد وحدة سياسية كما كان بل انقسم الى ثلاث وحدات ( ص ٥٥ ) . ويحسن أن تنتهى فترة النفوذ الرومانى عند عام ١٤٧ الذى حولت فيه مقدونيا الى ولاية رومانية ، ثم تبدأ فترة الحماية الرومانية منذ عام ١٤٧ حتى عام ٣٩ ق . م . فانه خلال هذه الفترة أدخلت الدول الهلينيستية الواحدة بعد الأخرى في حظيرة الامبراطورية الرومانية . وليس هناك ما يبرر اطلاقا تقسيم روستوفتزف هذه الفترة قسمين ، فانه لم يحدث في صدر القرن الأول ما يستدعى مثل هذا التقسيم . ومن العجيب أن مصر كانت أولى الممالك الهلينيستية التى أخذ الانحلال يدب اليها ، الا أنها كانت آخر تلك الممالك في استيلاء روما عليها ، غير أن مصر لم تحتفظ في الواقع منذ صدر القرن الثانى الا بظل من الاستقلال . ومما يستحق التسجيل

ان روما لم تستول على مصر الا بعد أن ألقت بلاد القراعنة الرعب في قلب الجمهورية الرومانية حتى انه يوم دخل أغسطس الاسكندرية أثبتت في السجلات الرسمية أنه أنقذ روما في ذلك اليوم من أشد المخاطر هولا !

ويصور الفصل الثالث تصويرا رائعا الحياة الاجتماعية والاقتصادية في العالم الهيلينستي على عهد الاسكندر الأكبر والجيل الأول من خلفائه ، مبينا التغييرات الجارفة التي طرأت على حياة ذلك العالم ، وأثر جيوش خلفاء الاسكندر في الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، ونظرة الاسكندر وخلفائه الى المدن الاغريقية . ويستوقف النظر هنا أنه مع أن المؤلف يرى أن العالم الهيلينستي كان يكون في هذه الفترة وحدة سياسية ، الا أنه تغاضى عن استخدام ما لديه من المادة في بيان الاتجاهات الاقتصادية الرئيسية في هذه الوحدة السياسية .

والفصل الرابع طويل الى حد أنه يكاد يكون كتابا قائما بذاته عن العالم الهيلينستي منذ عام ٢٨٠ حتى عام ٢٢١ ق . م . وينقسم هذا الفصل الى ثلاثة أقسام رئيسية ، يتناول أولها بلاد الاغريق والجزر ، وثانيها الدول الكبرى ( مقدونيا ومصر ودولة السليوكيين ) ، وثالثها الدول الصغرى (برجامون وبيثينيا وبونتوس وباطلاجونيا وجالاتيا ودول البحر الأسود) . وقد وجه المؤلف أكثر عنايته الى مصر ودولة السليوكيين وبلاد الاغريق والجزر . وبفضل كثرة الوثائق التي عثر عليها في مصر ، استطاع المؤلف أن يصور لنا في تفصيل أهداف البطالة الأوائل والنظم التي استنوها لتحقيقها وحالة البلاد الاجتماعية والاقتصادية في الجانب الأكبر من القرن الثالث . وقد صور لنا أيضا سياسة السليوكيين الاقتصادية ومحاولاتهم المحدودة في نشر الحضارة الاغريقية ، كما صور ما طرأ على بلاد الاغريق والجزر من التغييرات الاجتماعية والاقتصادية عقب عصر الاسكندر . واذا كانت حال كل بلد من بلاد الاغريق تكاد تختلف عن الأخرى ولو الى حد ما فانها كانت بوجه عام تتفق فيما أصابها

من التدهور الاقتصادى وما تعرضت له من الاضطراب الاجتماعى .  
وبنهاية هذا الفصل ينتهى الجزء الأول ، وهو يقع فى ٦٠٢ صفحة من  
القطع الكبير ، ويضم ٦٨ لوحة وأربعة أشكال فى المتن . ولعل الأرجح  
ان الصورة رقم ٣ فى اللوحة السابعة والصورة رقم ٨ فى اللوحة  
السابعة والستين هما لديمتريوس الثانى ملك بكتريا وليستا لديمتريوس  
الأول .

ويبدأ الجزء الثانى بالفصل الخامس ، الذى يعالج تاريخ العصر  
الهيلينستى منذ ٢٢١ حتى عام ١٤٦ ق. م. وينقسم هذا الفصل قسمين  
رئيسيين يعطينا أحدهما صورة قائمة لحالة بلاد الاغريق ، ويعالج الآخر  
الحالة فى باقى أنحاء الشرق الهيلينستى ، فيرينا أنه حين نعمت برجامون  
ورودس ودولة السليوكيين بالرخاء والرفاهية ، أخذت الحالة فى مصر  
تسير من سيئ الى أسوأ . ويرى المؤلف أنه منذ عهد بطلميوس الرابع  
استبدل البطلمة الأواخر بسياسة السيطرة على المصريين ، التى اتبعها  
أسلافهم ، سياسة اشراكهم فى الحكم ( ص ٧٠٦ ) لكننا نرى أنه لا يمكن أن  
نستخلص من الوثائق أكثر من أن البطلمة أخذوا يفسحون أمام المصريين  
بعض المجال الى جانب الاغريق . وليس أدل على صحة ماذهب اليه من  
قول ردستوفتزف فى موضع آخر من كتابه أنه لم يدخل أى تغيير  
جوهري على نظام فيلادلفوس ، وأنه على الرغم من ازدياد عدد الطبقة  
الحاكمة على مضى الزمن لاندماج الكثير من المصريين المتأغرقين فيها ،  
فقد بقيت التفرقة القديمة بين الطبقة العليا الممتازة التى تتألف من الاغريق  
وتضم الآن المصريين المتأغرقين وبين الطبقة الدنيا التى تتألف من سائر  
المصريين ( ص ، ٨٨٢ — ٨٨٣ ) ، وأن البطلمة الأواخر لم يرغبوا أن  
تصبح مملكتهم دولة شرقية ، ولا أن يضعفوا نظامهم الاقتصادى الذى  
كان يعتمد على استغلال أهل البلاد تحت اشرافهم الدقيق ( ص ١٠٧٢ ) .  
ويصور الفصل السادس الحالة فى العصر الهيلينستى فى ظل الحماية

الرومانية منذ عام ١٤٦ حتى صدر القرن الأول ، وان كان يشمل فيما يخص مصر القرن الأول أيضا حتى موقعة اكتيوم . والصورة العامة للحياة في العالم الهيلينستي خلال هذه الفترة صورة قائمة باستثناء ديلوس والى حد ما سوريا . ويرى روستوفتزف أن العامل الحاسم في انهيار مصر الاقتصادي كان مشاعر الطبقات الدنيا التي رفضت التعاون مع البطالة الأواخر في تنفيذ نظمهم . وعندنا أن ذلك الانهيار يرجع الى عاملين أحدهما خارجي والآخر داخلي . أما العامل الخارجى فهو نفوذ روما الذى حرم مصر ممتلكاتها الخارجية في القرن الثانى وامتنص دماءها في القرن الأول . لكنه لا يمكن مقارنة أثر هذا العامل بالعامل الداخلى، وهو حكام مصر أنفسهم . وليس من الانصاف القاء كل التبعة على البطالة الأواخر . لقد كانوا حقا ملوكا ضعافا لكن يجب أن يشاركونهم هذه التبعة البطالة الأوائل الأقوياء الذين وضعوا نظم الحكم التى طبقها البطالة الأواخر وأفضت الى تلك النتائج السيئة عندما رفضت جموع المصريين بطريقة سلبية أو ايجابية الاستجابة الى نداءات ملوكهم لأنهم سئموا أن يكون كل الغرم عليهم وكل الغنم لغيرهم ، ولأنهم كرهوا نظام حكم مرهق قيد حريتهم الاقتصادية وفرض عليهم ضرائب والتزامات ثقيلة . ويلاحظ أن المؤلف يذكر فى ص ٧٥٢ أن نقوش مسيني المشهورة تصور مستوى رفيعا من الرفاهية ثم يعود فى ص ١١٤٧ فيقول ان نفس هذه النقوش تصور مستوى وضعيا .

ويعالج الفصل السابع الحالة فى العالم الهيلينستي فيما عدا مصر منذ صدر القرن الأول حتى موقعة اكتيوم ، مبينا فى وضوح وجلاء انهيار ذلك العالم وأثر الحكم الرومانى فى ذلك ، فان نعماء الحماية الرومانية لم تكن الا أسطورة من نسج خيال الرومان .

وأخيرا نصل الى الفصل الثامن وهو فصل مطول يكاد هو أيضا يكون كتابا مستقلا ، ولكنه فصل ممتع يعتبره المؤلف ملخصا وخاتمة

لكتابه الجليل ، ومع ذلك فانه يعالج فيه تقطا جديدة لم يعالجها من قبل .  
وينقسم هذا الفصل قسمين رئيسيين يتناول أحدهما أبرز مظاهر الحياة  
الاجتماعية فى العالم الهيلينستى (وحدة هذا العالم ، والعداء بين الاغريق  
والشرقيين ، ونزاع الطبقات فى بلاد الاغريق) . ويتناول الآخر أبرز  
مظاهر الحياة الاقتصادية (السكان ورأس المال ، والمصادر الجديدة  
للثروة ، واستغلال المصادر الطبيعية للثروة) . وبانتهاء هذا الفصل ينتهى  
الجزء الثانى الذى يقع فى ٧١٠ صفحة ، ويضم ٤٤ لوحة وسبعة أشكال  
فى المتن .

ولا جدال فى أن هذا الكتاب النفيس الذى اختتم به رستوفتريف  
حياته الجامعية قد بلغ مستوى علميا لا يستطيع أن يرقى اليه اليوم الا  
نفر قليل ، وفى أنه أعظم مؤلف ظهر فى هذا القرن عن العصر الهيلينستى .  
فما أجمل الخاتمة ، وما أعظم المؤلف ، الذى يحق له أن ينظر برضى  
واطمئنان الى ماضيه الحافل بجلال الأعمال .

ابراهيم نصحى